

الباب الأول

شهرة جورج برناردشو

في عام ١٨٧٨ كان شاب في الثانية والعشرين من عمره ، برأس مال قدره ستة بذسات يساوم أحد أصحاب المكتبات على شراء بضع صفحات من الورق الأبيض الرخيص ليُسجل عليها بعض ما يتوارد على ذهنه من خواطر وافكار .

وما جاء عام ١٨٩٠ حتى كان ذلك الشاب نفسه قد خطا بقلبه خطوة جريئة نحو التقدم والرقى ، فسرعان ما تطلعت عليه الانظار ، ورنّت اليه عيون جماهير القراء في لندن وفيما جاورها من بلدان . مأخوذة بحيوية أسلوب ذلك الكاتب الجديد ، مذهولة لغرابة أفكاره وآرائه ، وواسع حيلته وسخريته بالالوضاع والتقاليد .

وفي عام ١٩٠٠ كان الكاتب نفسه يخرج المسرحية تلو المسرحية فيتهافت على المسارح الوف الرواد ، وهم يصخبون يضحكون بطريقة عجيبة لم يألّفوها من قبل .

وفي عام ١٩١٠ قدر الرأي العام الانجليزي أن ذلك الكاتب النابغة نفسه رغم شذوذه وغرابته وخروجه على المألوف ، وإن لم يوافق واحد على آرائه الاشتراكية المتطرفة ، فإنه كاتب محترم .. محترم بما تشمله هذه الكلمة من معان كثيرة ، لأنه كان يكتب عيشه دون أن يسجن أو يعتقل !

وماهى إلا أعوام حتى كان الكاتب ذاته قد ملا صيته الآفاق ، وسرى في العام مسرى الكمبرياء . فتحوّلت الأوراق البيضاء التي كان يكتب عليها قصصه ومسرحياته إلى أوراق مالية من نئات الأرقام العالية . فغدا حديث الناس . وليس في إنجلترا من لم يشهد مسرحية من مسرحياته . وافسحت له صكبرات الصحف اليومية صفحاتها الأولى . وكان في استطاعته أيضا أن يملأ أى قاعة بآلاف الناس إذا ماشاء ذلك . والناس من عادتهم يحبون كل غريب ، ويحبون برنارد شو

بنوع خاص . وهو يخدمهم في صوته الجهورى العذب ، وبسخريته عن طريقة معيشتهم وتكليفهم أسباب الحياة . ومضت الاعوام أيضا وبناردشو فى الطليعة يحتل أرفع مكانة فى الدولة بين الكتّاب والأدباء ، فضج الاخرون ، وامتلأت قلوبهم بالحقد عليه ، والكيد له ، والنكابة به . فعملوا جميعا على تشويه سمعته ، والنيل منه ، بكل ما أوتوا من قوة ، فقالوا عنه منذ ثلاثين سنة إنه لم يحصل على هذه الشهرة الواسعة الا عن طريق التمرج . ولا كت السنة الكتّاب ، خصوصا السلاطنة منهم بعض ألفاظ الحقد والحسد فقالوا إنه حشرة بغيضة خفيفة يجب القضاء عليها حالا .

وساء بناردشو أن يلغنه ويسفه من آرائه ويحط من قدره وكرامته طبقة من الناس تحترف مهنة الكتابة والتأليف ، فاستدار لهم ، ونازلهم فى كل ميدان . والقى عليهم أكثر من درس فى علم الاخلاق حتى تقلصوا جميعا أمامه ، وكان الارض قد انشقت بهم وابتلعتهم فى جوفها الرهيب .

وما كادت نيران الحرب العالمية الاولى تندلع فى أوربا وتمتد ألسنتها إلى القارات الاخرى ، حتى كان الشعب الانجليزى قد سئم هذا الرجل وتنكر له ، والى بنصائح عرض الحائط ، فصمت بناردشو على مضض ، وهو الذى لا يصمت ، وآثر السكون لحكمة عنده .

وما كادت الحرب تنتهى أيضا حتى بدأ الشعب من جديد يبيح عنه فى كل مكان ، ويتلمس آثاره كما يتلمس الضرير الاشياء بحساسة مرهفة ، وتنبه الجليل الجديد فعرف أن آراء هذا الرجل لم تكن هراء أو تخريفا أو تدجيلا كما كان يذاع عنه فى مستهل أيامه ، بل اتضح له أن هذه الآراء جميعها كانت صحيحة ، واسعة الافق بعيدة الاثر فى النفوس ، فاندفع الناس ورائه بكثرة لا تعرف لها حصرا أو عدا ، ولقبوه بالنبي ، وأصبح تعاليم بناردشو عندهم فى منزلة تعاليم الانبياء والمرسلين .

واليوم وقد بلغت شهرة بناردشو أعلى ذروة فى الوجود ، يقول لك عنه البريطانيون : إنه انجلترا نفسها ، أو إنه أعظم كاتب للدراما فى العصر الحديث ، أما

الاييرلنديون فيقولون عنه . هو مثال للعبقريّة المتفجرة التي لا تخرج الا من بلادنا ... ايرلندا !

وهو في نظر كثير من عرفوه معرفة جيدة ، ودرسوه دراسة وافية ، رجل يختلف عن كل رجل . وليس لأنه كاتب دراما من الطراز الاول ، أو متحدث مفوه ، أو اشتراكي كبير ، أو ناقد مرهوب الجانب أو حتى خليط من كل ذلك . . . وقد يكون الرجل العادي خليطاً من هذه المواهب جماء ، ولكنه قد يفقد المقدرة على إثارة شعور سائر الطبقات ، على اختلاف أنواعها وتباين مشاربها وأهوائها . . . ولكن برنارد شو كان قادراً على أن ينفث في الناس شعور الإقدام ، ويحرك الجماد ، وبذيب الصخر بكلماته الخالدة ، فسارت بذكره الركبان . .

المؤلفون وبرنارد شو

حاول كثير من المؤلفين أن يدونوا آراء برنارد شو على القرطاس ، ويحللوا شخصيته تحليلاً دقيقاً ، ليظهروه كمظيم من عظماء التاريخ ، وكيف أنه أثر على تفكيرهم ، وأخصب إنتاجهم ، فاعترفوا بفضلهم عليهم . وحاولوا جاهدين أن يقدموه إلى العالم ، وهو في غير حاجة إلى تقديم ، كآية دقيقة المعالم ، لا يتطرق إليها أدنى عطب أو خلل . . فكتبوا عنه كثيراً وملاؤوا الدنيا ضجيجاً حوله . .

ولبدأ بكتاب أرشيبالد هندرسون ، أستاذ الرياضيات الأمريكي المعروف ، فنقول إن هذا الكتاب يسجل تقدم برنارد شو في كل حقل من حقول نشاطه . وهو كتاب دقيق ، ومرجع قيم ، ولكن المؤلف يتحدث فيه كثيراً عن نفسه أكثر مما يتحدث فيه عن موضوع برنارد شو . .

وهو على كل حال يختلف اختلافاً بيناً عن كتاب فرانك هارس ، مثلاً الذي تخطط فيه الأخير خبط عشواء ، ونسب إلى نفسه الكثير من مشابته لبرنارد شو كما نسب لنفسه الكثير من الفضل في أكثر من صفحة من الكتاب ، مثله في ذلك مثل الطفل الذي زار حديقة الحيوان مرة عاد بعدها يقص على الأطفال من زملائه كيف أنه صفع فيلاً ضخماً هناك !!

ومن أمثلة هذا التخبیط العجيب في كتابه هارس قوله ، و فرقا الرئيسى مصدره
أن برناردشو أراد أن يكون رجل عمل في حين أننى كنت ذلك الرجل ! ، أو قوله
، فهو إذن ليس عظيما كما يدعى هو لنفسه . . .

واستمر هارس على ذلك المنوال ، حتى أنه كثيرا ما وجد نفسه مضطرا قسرا
إلى التعدى على الرجل بكلمات جارحة ، وهو ذلك الذى يدعى أنه يماثله في عظمته
ونبوغه ، وعلو همته ١٩

أما كتاب الاديب الانجائزى الكبير تشستر تون الذى كتبه عام ١٩٠٥
فيختلف أيضا عن هذين الكتابين اختلافا كبيرا . وإن كانت محتوياته رديئة ، أى
أنها لم تكتب بالمهارة التى كانت تنتظر من الاديب الكبير . وقد علق أحد النقاد
على هذا الكتاب بعبارة أقضت مضجع تشستر تون وانصت عليه بقية حياته وهى :
« إن تشستر تون في كتابه هذا كأنه جل استنوفى ، أو كلب نبوفوندى تظاهر
بأنه قطيطة . . ١٠ »

أو ما كتبه أحد القراء على الصفحة الاولى من هذا الكتاب - كتاب
تشستر تون - بالخط العريض بعد قراءته له هذه العبارة « أجمل تبجح كتب الى
الآن ، ولعل هذه النسخة قد تعبت من كثرة الايدى التى تداولتها في مكتبة دبلن ،
والتي كان يحج إليها الكثيرون ليقرأوا تعليق القارئ البليغ . .

ولكن هذا ، التبجح ، تحول بقدرة قادر إلى تقدير مواهب برناردشو - رغم
أنف الحساد - وإظهار عبقريته الفذة في وقت كان النبوغ فيه معدوما ، والعبقرية
خرافة لا يعتقد فيها الجيل الجديد . . .

ولم يكن في مقدور تشستر تون أن يمدح برناردشو أو يعترف بمواهبه أو
ينبوغه أو حتى بعبقريته ، ذلك لأن شو إيرلندى وتشستر تون انجائزي ! ففاته
الكثير ، ولم يوفق كل التوفيق في عرضه لحياة ذلك الرجل العظيم برنارد شو ١١

أما كتاب الاستاذ ج.ب.هاكت ، فهو كتاب معتدل من نواحي السرد والاختبار
والتحليل . ولا يحاول صاحبه فيه أن يقف على السر الذى لفت انظار الانجائز

والروس والامريكان واليابانيين والالمان الى برناردشو، واضطرم أن يحنوا
له ها ماتهم ورقاهم الطويلة ، ويلقوا اليه بالذهب الرنان من غير حساب ...

اللغز الخالد

برنارد شو لغز - كما يقول هاكت ككل لغز - كابتسامة شارلى شابلي الساحرة ،
وموسيقى كلمات شكسبير الخالدة ، لغز لا يستطيع حله أو فك طلاسمه ، لأنه
لا يعرف مفتاحه .

وهاكت على ما أعتقد محق فيما ذهب إليه ، بل لعله كان أعقل هؤلاء الكتاب
الذين ترجوا حياة برنارد شو . لأنك أيها القارئ إذا أردت أن تدرس برنارد شو
دراسة وافية فعليك بقراءة آثار برنارد شو نفسه . وحتى هؤلاء الذين لا يحتملون
ضجيج وآراءه ، عليهم أيضا أن يقرأوا له . ويقرأوا له بصبر وروية وناة .

إنه يطابق كل الأذواق . فرجال السياسة والتجربة سيجدون كتابته مملوءة بكل
ما يبحثون عنه . وحتى هؤلاء الخطباء الفصحاء ، مهما بلغت بهم الفصاحة وأسباب
البيان ، سيجدون كلماته ترتعش على شفاهم .. والأمهات أيضا سيجدن في
تعبيراته مادة دسمة لردع بناتهن المتعردات . وأولئك المتعردات سيجدنه أول من
يدافع عنهن !!

ولاندش أيها القارئ ، إذا قلت لك إن قطاع الطرق وأخطر اللصوص سيتبعونه
بحماس زائد ، ونفوسهم تكاد تلتهب حمداً على ما يصفه لهم من متاع القصور الباهر
وثريلاتها التي تبهر الأبصار .. والقتله السفاكون أيضا سيعودون إلى سفك الدماء إذا
ما رأوه قادما نحوهم من بعيد . !

استمع يا صاحبي إلى تلك المقدمة التي كتبها برنارد شو مرة ..

يقول بالحرف الواحد : لويسرت لى الحياة أدنى فرصة لمناقشة روح رجل نفذ
فيه حكم الإعدام حديثا لجرمة قتل اقترفها . فما لاشك فيه أنه سيبدأ يقص على
طريقة محاكمته . ويسرد قائمة السيدات والاسياد الذين شرفوه في المحاكمة ليشهدوها

ثم عن تنفيذ حكم الإعدام . وكل هذا قد يضايقني بدرجة كبيرة . ولكنني سأسأله فوراً .

« أيها السيد العزيز ، إن هذه الأجواء المنمقة لا تعينني في كثير أو قليل ...
فأنا على علم بمثل هذه المحاكمات ، وكيف تدور إلى تنفيذ حكم الإعدام فيك
ولو كنت مكانهم لقتلتك أشنع قتلة من غير ضجيج أو احتفال رسمي . آه لو كان الأمر
بيدي !

« وكل ما أريد معرفته يا بطل ، هو كل ما يتعلق بالجريمة نفسها . جريمة القتل !
كيف كان شعورك عند ارتكابك الجريمة ؟ كيف فعلتها ؟ وما الذي قلته لنفسك
عنها ؟ فلو لم تعدم ، كم كثير من القتلة أمثالك الذين برأتهم ساحات المحاكم ؟ هل كنت
ترتكب جريمة - استغفر الله - أفصد جرائم أخرى ؟ وهل حقاً كنت تكره الضحية ،
أو كنت تريد مال القتل ، أو قتلت شخصاً لم تكن تضمر له أى سوء ؟ ومن موته
إن تستفيد شيئاً . فقط من أجل شهوة القتل ؟

« ولو كان الأمر كذلك فهلا تكرمت على أيها المجرم بوصف الموقف وصفاً
دقيقاً ؟ ...

« وهل يعاودك هذا الحنين إلى القتل من وقت لآخر أم أنه مزمن فيك ؟ هل الحب
الاستطلاع دخل في كل ذلك ؟ ...

« وسوف انهال عليه بالسؤال تلو السؤال ، حتى أعرف ماهية الجريمة ، ولن
أقتنع حتى أكون قد لمست بنفسى معيار الصدق فيه . فن يدري ، فقد ارتكب أنا
الآخر جريمة قتل في يوم ما ... وإلا فعني هذا أن في المجرم صفة معدومة عندي !
وإذا كان الأمر كذلك . فأى نوع من الصفات تكون ؟ ...

« ألا يضحكك هذا الأسلوب أيها القارئ ؟ ألا تتخيله أسلوباً هزلياً فاحراً . ومن
العسير على وعليك أن نعتقد أنه كان جاداً في عرضه لتفسير حالة الجريمة تفسيراً دقيقاً
وهو يكتب إحدى دراماته المشهورة .

« وثمة شيء آخر يجب أن تعرفه . وهو أن الرجل الذي تغريه عبقرية شو

فيحاول جاهداً أن يقف على أسبابها . لابد له أن يعرف أن رجلاً كبرنارد شو آلى على نفسه، وهو في الحلقة الثانية من عمره أن يكون أميناً مع نفسه، ومع العالم كما رآه. وكان من المقدرة بمكان أنه حافظ على هذه الحياة المثالية خلال سبعين عاماً ، لم يتطرق إليها أدنى خال . وفي العالم برز وجاهد وكافح من أجل المجتمع الانساني . فلم يعتد عليه انسان ، أو بمعنى آخر لم يقتله انسان ، كما حدث ويحدث في كل بلد من البلاد مع كبار الساسة والزعماء .

نصيحتي إلى ذلك الرجل الذي يريد أن يدرس برنارد شو أن يدرسه على حقيقته وقد يكره فيه سلاطة لسانه ، ولكنه ان ينكر عليه دفاعه عن الحق المضموم . دفاعه من أجل ومن أجلك ومن أجل كل مخلوق يعيش على هذه الارض . أنه يفتح الازهان . . يجبرك على التفكير في أمر نفسك .

نظر برنارد شو حوله فاذا الناس سائمة هائمة على وجهها لا تعرف عن نفسها شيئاً ، فاهاب بهم ، ودعاهم إلى أن يفكروا بترو وتمهل . حتى يشعروا بانسانيتهم وبطبيعة خلقهم ، ولماذا هم يعيشون في هذا الكوكب ؟ لأي غرض جاءوا وأين يستقر بهم المطاف يا ترى عند ما يتركون هذا العالم إلى عالم المجهول ؟ !

تسكن أحد الكتائب الانجليز بأنه سيأتي يوم تمنح فيه جامعات أوروبا وانجلترا درجات خاصة في العلوم والآداب . تطلق عليها درجة برنارد شو في التربية ، أو درجة برنارد شو في الفلسفة ، أو درجة برنارد شو في الحقوق الخ . . وذلك لان آثار هذا الرجل تزن مئات الارطال . وهي كفيلة وحدها بأن تكون دستوراً جديداً لمناهج التدريس ، إن لم يكن في هذا القرن أو في القرن القادم فسيكون فيما يستجد على الايام من قرون ١١

بل لقد ذهب الكتائب إلى أكثر من ذلك فقال : ومن يدرى ؟ فلعل الجامعة لن تمنح الطالب هذه الدرجة إلا بعد أن يكون قد ضيع ما يربو على الحسين عاماً في دراسة برنارد شو ، وهي على كل حال ستعقد له امتحاناً قاسياً لارحة فيه ولا هوادة يدلي فيه برأيه في النقاط الثلاث الآتية :

- (١) فسر عقيدة برنارد شو بوضوح واسهاب ؟
(٢) ما الذى تعرفه عن تصرفات برنارد شو اليومية . صفها بإسهاب ؟
(٣) اثبت أن هناك علاقة بين ما جاء فى السؤال الاول والسؤال الثانى .

إن هذا الكاتب يعتقد اعتقادا جازما بأن كتب التاريخ مثلا أصبحت عملة ، وعلى الجامعات أن تغير مناهجها ، وتحاول أن تدرس هذا الرجل دراسة دقيقة مسهبة . وهو على استعداد لأن يثبت لها أن دراسته ستأخذ منها أجيالا برمتها . لأن برنارد شو قد نال من التجربة أكبر قسط ، ودون فى كتبه ومؤلفاته ما لم يدونه التاريخ نفسه على تعاقب الاحقاب والاجيال . .
إنه أكثر من ميكروسكوب وأكثر من قنبلة ذرية !!

أنه أكبر معلم فى هذا الجيل . . وعالم جليل من علماء التربية - مهما أنكر عليه الناس ذلك - وإن لم يكن لديه موضوع ثابت فى التربية يحدث الناس عنه !!
لايسوء برنارد شو غير شيء واحد ، هو أن تلاميذه يضيعون أوقاتهم فى دراسة ما قاله وما كتبه . . أى أنهم رسموا لحياتهم منهاجا مستمدا من آرائه وأنهم بذلك لغافلون . . لأنهم يتركون الجوهر ويتشبهون بالقشور الزائفة . أو عند ما يتخذون عبارة من عبارته فإنما يدفنون أنفسهم فيها أحياء !!

إن قانونه كان دائما ينص على أن دستور الناس ليس فقط وقحا أو سليطا وليكنه مستحيل . . ولو كان الناس من السذاجة بمكان أنهم يجرعون أى جرعة تقدم لهم أو أقدمها أنا لهم من غير تبصر وفهم ! فهم وحدهم المومنون إذا ظهرت عليهم أعراض النتائج العكسية !! ،

وأخيرا فإن برنارد شو لغز . . لغز خالد عسير على الألبام حله .
أنه لا يزال حيا يرزق . والناس معه أحياء يرزقون . ولكن نظرهم له لا تزال قصيرة وضعيفة : فإني لأحدهم أن يكشف القناع عنه حقيقة ، ليطلعنا على حقيقة ما يكتنف عالمه من غموض وإبهام .

لقد حاول كل كاتب أخرج عنه كتابا ذلك من قبل ، وتبارى فريق كبير منهم ،
واسكنهم بآءوا جميعا بالفشل الذريع . .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب جميعا - واست متحديا إياهم - فهذا الكتاب
الذى بين يديك أيها القارئ يحاول جاهدا أن يطلعك على نوع اللغز لعلك أنت
تكشف عنه ، ومن يدري ؟ فهذا كثير الحدوث .

يقول النقاد : لماذا كل هذا الغموض الذى تفسجونه حول الرجل ، ثم ترتفعون
به إلى الطباق السابع لماذا تقولون عنه إنه لغز غامض أو لغز خالد . .

وهو لا يستحق شيئا من هذا كله . . سهل بسيط ميسور التفسير ؟ !
وسرعان ما ترد عليهم فئة أخرى من النقاد فيقولون : إنه أمر لا يمكن البت
فيه برأي صائب أو سديد . وهكذا الحال مع كل قصة جيدة . وقصة برناردشو
أجود وأحسن قصة ظهرت فى الوجود . لقد ذكرها فى كتاباته ، ولكنها قصة عسير
على الإنسان أن يتبناها بسهولة ، ذلك لأنها قصة طويلة من ناحية ، ولأنه أراد أن
يقول الصدق كله كاملا غير منقوص عن بيئته ونشأته من ناحية أخرى ، ولهذا كله
بدت القصة للناظرين لغزا خالدا لا يمل . . .

ومفتاح هذه القصة هى عقيدته وحماسه وتنفيذه لبرنامج خاص آلى لم يخل منه
وكأنه لم يكن من البشر بل كان آلة من الآلات . . .

ولأن له رأيا خالدا فى العالم ومكانه فيه . وهو يعيش لعقيدته . . . ويملا حياته
بهذا الاعتقاد الراسخ المسكين . .

إن اعتقاده غريب ، ولكن الشك لا يرقى إلى إخلاصه لعقيدته وإيمانه . . .
إن الجبال قد تدك وتزول ، وحتى الصخور الصماء الراسخة قد تتزحزح من
أمكنها وتتناثر فى الفضاء أشلاء بفعل عواصف الزمن ، ولكن إيمان هذا الرجل
لعقيدته راسخ لا يتزعزع قيد أنملة .

لم يحاول برناردشو أن يخفى اعتقاده عن الناس أو يجاهرهم به . فن جوهرا لالبسنية .
١٨٩٠ إلى مقدمة الرجوع إلى متوشاخ ١٩٢١ ، إلى الفتاة السوداء ١٩٣٢ ،
إلى قاموس السياسة ١٩٤٤ ، وهو يدافع عن هذه العقيدة دفاع المستميت . .
هذه العقيدة فى جملة قصيرة هى : قوة الحياة ، دينه الاوحد الذى يبشر الناس به .
إن برنارد شو لغز ولغز خالد لا شك فيه . . .